تقرير مصير الإخوان

لا أحد ينكر وجود تيار قوى غالب فى المجتمع المصرى الآن يرفض وجود جماعة الإخوان من أصله ، ويسعى - قبل فصائل السياسة - لإقصاء الإخوان واستئصال وجودهم السياسى ، والمثير أن قيادة الإخوان البائسة تعمل دون أن تدرى لخدمة هدف الاستئصال نفسه .

صحيح أن قيادة الإخوان ليست بعافية هذه الأيام ، وأن كثيرا من أعضائها غابوا وراء أسوار السجون ، وأن حملات القبض تتواتر تباعا، وتهدف إلى كسر الحلقة الوسطى من كادر الجماعة ، وترك الأطراف والقواعد تتصرف عشوائيا ، وهو ما بدت آثاره ظاهرة فى التواضع المتزايد لحشود المظاهرات والجمعات الأخيرة ، وإلى حد تحولها إلى مجال للتندر على خيبة جماعة الإخوان ، والتى اشتهرت فيما مضى بطاقتها التنظيمية والمالية الهائلة ، ومقدرتها المميزة على تنظيم حشود مليونية الطابع ، لكن جغرافيا المظاهرات التى تنحسر بشدة ، وتواضع أعداد المشاركين ، والضعف الخلقى لحلفاء الإخوان ، والنفور الشعبى المتزايد ، كل ذلك مما يخلق بيئة مناسبة لازدهار أفكار استئصال الإخوان ، ومعاملتهم كطائفة منبوذة ، وإلى حد انتشار أغنيات عنصرية ، تصور الإخوان كشعب ودين آخر ، وكأنهم ليسوا من الشعب المصرى ، ولا من أتباع دين الإسلام ، وقد لا يمكن إغفال دور الإعلام المحرض على الإخوان ، لكن قيادة الإخوان نفسها تلعب دورا مغذيا لحملة التحريض ، فلم تنتقل بعد من حالة الصدمة إلى حالة الإفاقة واسترداد الوعى ، ودخلت فى وضع التخبط والتخشب ، صحيح أن تنظيم الإخوان الداخلى على قدر هائل من المرونة ، وأن كل قيادة أصلية لها ثلاثة من القادة الاحتياطيين ، وأن تزايد أعداد المغيبين وراء الأسوار لا يوقف عمل

التنظيم، فثمة قيادة احتياطية جاهزة ، وهى تعمل بصورة جماعية وقطاعية الآن ، لكن هذه القيادة الاحتياطية الميدانية ليست مفوضة على ما يبدو بالتصرف السياسى ، وتنتظر أمرا لم يصدر بعد من مرشد له السمع والطاعة ، وسواء كان من المرشد الرسمى محمد بديع المحتجز فى السجن ، أو من المرشد الاحتياطى محمود عزت الهارب المطارد ، أو من المرشد السرى القابع فى مكتب لندن ، والذى يشغل موقع الأمين العام لتنظيم الإخوان الدولى ، وحيث تتقاطع مصالح دول وأجهزة مخابرات كبرى ، وتتدفق الأموال بلا حساب ، وبهدف وحيد هو إرباك الوضع فى مصر ، ودعم جماعات الإرهاب شرق سيناء ، والتواصل مع مجموعات إخوانية سرية مسلحة فى القاهرة وعواصم الوجهين القبلى والبحرى ، والمحصلة : عنف متفرق لايهز بدن الدولة المصرية الضخمة الراسخة ، بل يبرر لها حق التشدد فى إجراءات الطوارئ، ويحاصر جهد النجدة الحقوقية لمحبوسى الإخوان ، ويقلص إلى أدنى حد من بقية تعاطف مع مظلومية الإخوان ، أو ضد حالات استخدام القوة المفرطة من قبل السلطات ، فلا أحد عاقل يبرئ "القوة المفرطة" من مسؤولية جنائية مباشرة عن دم ضحايا الإخوان ، لكن "الغباوة المفرطة" لقيادة الإخوان مسؤولة هى أيضا عن دم شباب الإخوان ، ولا يخلو الأمر من مصلحة قصيرة النظر لقيادة الإخوان البائسة ، فهى لا تريد الاعتراف بخطاياها وذنوبها ، وتريد أن تغسل ذنوبها بدم شباب الإخوان ، وإشغال الشباب بتنظيم مظاهرات يومية صغيرة لا جدوى منها، وحتى لا يلتفتوا إلى محاسبة القيادة البائسة التى أوردتهم إلى هاوية التهلكة ، ولا تريد لهم أن يفيقوا إلى أمرهم ، ولا أن يحفظوا ما تبقى من أمل فى تجديد التنظيم الإخوانى ، فهؤلاء الشباب أسرى فى سجن قيادة لا تحسن غير الوضوء والصلاة وتلاوة أوراد الصباح والمساء ، فيما يبدو خيالها السياسى والتاريخى منعدما ، وتبدو تقديراتها للموقف غاية فى الضلال ، فلا تزال تتحدث عن عودة مرسى وعودة الإخوان للحكم ، رغم أن عودة مرسى تشبه عشم إبليس فى الجنة ، ورغم أن عودة

الإخوان للحكم صارت مستحيلة ، وبأى طريق كان ، وسواء كان بطريق "العصيان المسلح" الذى جربوه وفشلوا يوم فض اعتصامى النهضة ورابعة العدوية ، أو بطريق "العصيان الشعبى" الذى جربوه حتى تآكلت مظاهراتهم ، أو بطريق الفوز الانتخابى الذى كان ولن يعود ، فقد انهارت أسهم الإخوان فى بورصة الرأى العام المصرى ، والأسوأ : أن مجرد وجود حزب معترف به للإخوان صار محل تساؤل وشك عميق .

وبعيدًا عن خطايا قيادة الإخوان التى لا برؤ منها ، فإن مصير الإخوان يبدو مرتبطا بعوامل كثيرة ، لعل أهمها يكمن فى الوضع الداخلى لتنظيم الإخوان ، فالإخوان بحاجة إلى ثورة داخلية كبرى ، وتلك مهمة غاية فى الصعوبة ، فقد ضاع جهد ٨٥ سنة من عمر أجيال الإخوان خلال سنة واحدة حكموا فيها مصر، وتبدت العورات مكشوفة للعيان ، وظهر أن الإخوان مجرد خزان بشرى هائل، ولكن بلا كفاءات ولا عقليات تلفت النظر ، فليس فى تاريخ الإخوان الطويل مفكر واحد باستثناء سيد قطب صاحب نظرية التكفير والمجتمع الجاهلى، والذى توارى ألقه الأول مع فناء طبعة الإخوان الأولى سياسيا فى جولة الصدام مع عبد الناصر ، ثم آلت القيادة - فى طبعة الإخوان الثانية - إلى نفر من أتباع قطب ضيقى الأفق باهتى الشخوص ، وبلا مقدرة نقدية على التجديد والتخليق ، وكان كل همهم مجرد السيطرة على إمبراطورية اجتماعية للإخوان ، واستنساخ عقليات مقولبة فى مكتب الإرشاد ومجلس الشورى والمكاتب الإدارية، وطرد كل شخص تظهر عليه أمارات التفكير المستقل أو التجديدى ، وكما جرى مع القيادى عبد المنعم أبو الفتوح صاحب الدور الأكبر فى تأسيس الطبعة الثانية للإخوان ، ولم يسمح "الحرس الحديدى" بنفوذ متضخم سوى لملياردیرات وعائلات ثراء تجارى كخيرت الشاطر وحسن مالك وآل الحداد ، وكان لهذه السبيكة من فقر وتصحر التفكير مع الثراء المالى أثرها المدمر ، وخصوصا مع سيادة مبدأ السمع والطاعة ، فانتهت الجماعة إلى وضع عظيم

البؤس ، انتهت إلى جسد ديناصور بعقل عصفور ، وبدت الفجيعة كاسحة حين حكمت ، فقد حكمت بالشهوة لا بالحكمة ، وتعاملت مع الحكم كأنه فرصة إعارة لبلد خليجي غني ، حكمت بمنطق الإعارة والإغارة على مفاتيح المال والسلطة ، وأصيبت بتخمة قتلت شعبيتها الاجتماعية ، وسهلت إزاحتها المبكرة عن الحكم ، وحين وقعت الواقعة ، فلم يفكر أحد من قادة الإخوان فى الدرس والعظة والعبرة ، فلم يتعودوا أن يفكروا لأنفسهم ، بل تعودوا على تلقى الأوامر والتعليمات ، ولم يكن لديهم من حل غير الدخول فى حالة نفسية مرضية من إنكار الواقع ، والإندفاع إلى صدام قد يفنى الجماعة نفسها ، والتعويل على تدخل أمريكى لإنقاذ الجماعة ، وهو ما يفاقم حالة الغضب الشعبى من الإخوان ، فأغلب المصريين الآن بين واحد من شعورين إزاء الإخوان ، فإما أنهم يكرهون الإخوان أو يخافونهم ، وإلى حد تحولت معه فكرة "شيطنة الإخوان" إلى وباء شعورى كاسح ، وما من وسيلة لإيقاف التدهور سوى بظهور قيادة إخوانية متمردة ذات اعتبار ، تقرر إزاحة القيادة المتكلسة إلى متاحف التاريخ ، وتلهم شباب الإخوان فى القواعد بأمل جديد ، وبطبعة جديدة للإخوان تصالحهم مع المجتمع المصرى ، قيادة تطلق ثلاثة أوهام "أخونة مصر" ، وتقوم على "تمصير الإخوان" فكرا وسلوكا ، وقد يبدو ظهور هذه القيادة مما لا يرجح حدوثه ، لكن الأمل لم يخب تماما بعد ، فلا بد من تفكير جديد يقاوم نزعة "استئصال الإخوان" السارية فى المجتمع ، ويتبرأ من أعمال العنف والإرهاب ، ويسقط من حسابه كل من تثبت عليه تهمة جنائية ، ويطلب الإنصاف لشهداء راحوا ضحية "قوة مفرطة" من السلطة و"غباوة مفرطة" من القيادة الإخوانية البائسة ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، والدم المصرى كله حرام ، ولا تفرقة تصح بين دم شباب الإخوان ودم شهداء الجيش والشرطة والمسيحيين المصريين ، وصفحة العنف يجب أن تطوى كلها، فلن يكسب الإخوان بالعنف ما فقدوه بالسياسة ، بل أن العنف ـ بالذات ـ قد يطوى صفحة الإخوان كلها ، وعنصر الوقت هنا حاسم

لنجاح أى مبادرة ، فالذى لا يفهم ماضيه يكتب عليه أن يكرر مآسيه ، وأن يعيشها إلى الأبد ، وكما يصح القول فى حق الإخوان ، فإنه يصح بالدرجة نفسها فى حق المجتمع والدولة ، فالاستئصال والمطاردات الأمنية لن تفيد ، وقد جرى تجريبها فى أيام المخلوع مبارك ، ودون أن تؤدى سوى إلى تضخم ظاهرة الإخوان، وهو مالا تصح العودة إليه ، تماما كما لا تصح العودة إلى "سبهللة" وفوضى سياسية ودعوية سادت عبر العامين الأخيرين ، فالدعوة الدينية كلها يجب أن تكون تحت قيادة الأزهر مع ضمان استقلاله ، وأن يحظر على الدعاة أى إنضمام للأحزاب السياسية، وتماما كوضع القضاة ورجال الجيش والشرطة ، وأن يجرى إنهاء بدعة الجماعات الدعوية أو المستترة بالدعوة كجماعة الإخوان ، وأن يترك للمواطنين الإخوان ـ كما سواهم ـ حق إنشاء أحزاب لا تقوم على أساس دينى ، ولا ترفع شعارات احتكار الإسلام ، فالإسلام فى مصر قضية مجتمع وليس دعوى لحزب ولا بضاعة محجوزة لجماعة.

"القدس العربى " فى ٩ من سبتمبر٢٠١٣